الفصل الرابع

العصر العباسى الرابع

عصر السلاجقة وسقوط الخلافة العباسية

٤٤٧ - ٦٥٦هـ/١٠٥٥ - ١٢٥٨م

١ - ظهور السلاجقة وقيام دولتهم

٢ - دخول السلاجقة بغداد

٣ - سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين

٤ - زوال دولة سلاجقة العراق

٥ - سقوط الخلافة العباسية.

العصر العباسى الرابع

٤٤٧ - ٦٥٦هـ/١٠٥٥ - ١٢٥٨م

١ - ظهور السلاجقة وقيام دولتهم:

عاشت فى تركستان مجموعة من القبائل التركية المعروفة باسم العز، وفى سنة ٣٧٥ اضطرت هذه القبائل على الرحيل عن وطنها إلى بلاد ما وراء النهر، بسبب ظروف اقتصادية آلت بها، دفعتها إلى الهجرة.

قاد هذه القبائل رحلتها إلى العالم الإسلامى زعيم يدعى سيلجوق بن دقاق، غلب اسمه عليها فصارت تدعى بالسلاجقة.

اعتنق السلاجقة الإسلام على المذهب السنى، وقدوا حلفا مع السامانيين أصحاب بلاد ما وراء النهر، فسمحوا لهم بالاستقلال قرب بخارى وسمرقند.

انتعشت أحوال السلاجقة، وبخاصة بعد زوال الدولة السامانية فى سنة ٣٨٩ وصار لهم جيش وافر العدة، مما أثار حفيظة الخانيين، وسعوا إلى الإيقاع بينهم وبين السلطان محمود صاحب غزنة.

كان محمود بن سيكاتكين الغزنوى قد أنشا لنفسه دولة كبيرة ضمت خراسان وما وراء النهر، وغزا الهند اثنا عشر مرة، فلقب بالغازى، ثم أنعم الخليفة العباسى عليه بلقب يمين الدولة.

انصاع محمود الغزنوى لدسائس الخانيين واحتال على السلاجقة فأرسل إلى زعيمهم إسرائيل سنة ٤١٥ يعرض عليه أن يتعاونا سويا واقترحا أن يلتقيا فى مكان قرب نهر جيحون، وكذلك تمكن السلطان محمود من القبض على إسرائيل وعدد من وجوه قومه وألقى به فى إحدى قلاع الهند، فظل بها إلى أن مات سنة ٤٢٢هـ.

خلف ميكائيل أخاه إسرائيل فى زعامة السلاجقة وسعى إلى أن يتدبر أمره مع السلطان محمود، فبعث إليه يلتمس الرحيل بقومه إلى خراسان، والإقامة بين نساوباورد، وقال "إن مقامنا أصبح يضيق بنا، وإن مراعينا أصبحت لا تفى بحاجة مواشينا" ومع أن أرسلان وليتوس بعث إلى السلطان محمود يحذره من غبت الانصياع لطلب السلاجقة، إلا أنه أجابهم لما طلبوه.

يشكل انتقال السلاجقة إلى خراسان مرحلة جديدة فى تاريخهم فقد أخذوا فى تدعيم قوتهم ويتحينون الفرصة للانتقام من السلطان، وتهيأت لهم هذه الفرصة فى سنة ٤١٨، فوقعت الحرب بينهم وبين والى طوس، وتحقق النصر لهم فى البداية على أن مقدم السلطان بنفسه حول نصرهم إلى هزيمة.

كان لميكائيل ولدان هما جغرى بك أبو سليمان داود، تغرل بك أبو طالب محمد، وكان فارسين مقدامين، استطاع أن يجمعا حولهما القبائل، وانتهز فرصة موت السلطان محمود فى سنة ٤٢١، وأخذ ينشران نفوذهما فى أنحاء خراسان.

لما اطمئن السلاجقة إلى قوتهم طلبوا من والى نيسابور بأن يأذن لهم بالإضافة بالقرب منها، فرفض الوالى واستعان بالسلطان مسعود بن محمود الذى أسرع إلى نيسابور فى سنة ٤٢٦ لدفع خطرهم فالتقى بهم قرب نسى وانهزم السلاجقة فى البداية، لكنهم انتصروا فى النهاية انتصارا باهرا، واضطر مسعود إلى مصالحتهم، وترك لهم المنطقة ورحل إلى الهند.

قوى أمر السلاجقة بعد هذا الصلح، وحمل زعائمهم ألقاب الدهاقين ويقول الراوندى "اشتد باسمهم وازدادت قوتهم ولاحت عليهم إمارات الملك وعلامات الحكم ومخايل السلطان".

عاود مسعود مهاجمته السلاجقة فى سنة ٤٢٩ فعاودته الهزيمة مرة أخرى، وأضحى السلاجقة أكبر قوة فى خراسان.

شعر السلاجقة بأن الوقت قد حان لإعلان قيام دولتهم فوحدوا قيادتهم فى يدى طغرلبك الذى جلس على عرش مسعود فى نيسابور، وباشر مهامه كسلطان

وإذ كان الخليفة العباسى لم يـعترف به إلا سنة ٤٣٢إلا أن هذه الاعتراف لا يعدوا كونه مسألة شكلية فحسب.

عندما ترامت هذه الأخبار على مسعود توجـه إليهم مرة ثانية وأخيرة حاقت به الهزيمة فى دندانقان سنة ٤٣١، وكانت هزيمـة ساحقة، انقلب بعدها إلى غزنة مدحورا، وغنم السلاجقة مغانم وفيرة ورجع طغرلبك إلى نيسابور منصورا.

٢ - دخول السلاجقة بغداد:

قوى أمر السلاجقة بعد موقعـة دندانقان وجعل طغرلبك عاصمته فى الرى، وسعى إلى أن يحصل على اعـتراف الخليفة العبـاسى به فأرسل إليه فى سنة ٤٣٢ يظهر ولاة، وحبه للجهاد وبين له غدر السلطان مـحمود بعمه إسرائيل، وكيف أن الغزنويين انصرفوا عن الجهاد إلى اللهو وعدم مراعاة شئون دينهم.

قبل أن يصل إلى طغـرلبك رد الخليفة القـائم كان قد تم له الاستـيلاء على جرجان وتبرستان من الغوريين، كما فـتح خوارزم، فبما وصله رسول الخليفة إلى بغداد، اعتذر طغرلبك عن تربية الدعوة حـتى يتم له فتح سائر أقاليم إيران فتمكن من بسط نفوذه على قزويـن وهمزان وأذربيجان وأصبهـان، ثم دخل تبريز فى سنة ٤٤٦ ومضى يتطلع إلى العراق.

كان أبو كاليجـار الملقب بعماد الدولة قد استقـرت إليه أمور العراق فى سنة ٤٣٥ واعترته المخاوف من تقدم السلاجقة فى الهضبة الإيرانية، فسعى إلى مصالحة طغرلبك، حتى يأمن شره واتفق معـه فى سنة ٤٣٩ على أن يتزوج طغرلبك بابنته ويتزوج أبو منصور بن عماد الدولة بابنة الملك داود أخى طغرلبك.

كان المؤيد فى الدين داعى الدعاة هبـة الله الشيرازى نشر الدعوة للفـاطميين بفارس والعراق مما أثر مـخاوف الخليفة القائم، فبـعث إلى عماد الدولة يطلب منه تسليمه هبة الله ويتوعده الاستعانة بالسـلاجقة، إذا لم يستجيب لمطلبه فاضطر هبة الله للرحيل إلى مصر فى سنة ٤٣٨.

وجدت الدعوة الفاطمية تأييدا من بعض القادة الأتراك، وبخاصة أبى الحارث أرسلان البساسيرى، وعندما تنبه الخليفة القائم بذلك فى سنة ٤٤٦ أرسل إلى الملك الرحيل - الذى خلف أباه عماد الدولة - يطلب منه إبعاد البساسيرى من بغداد ولم يجد البساسيرى إلا أن يغادر المدينة إلى الحلة، حيث نزل على أميرها دابيس بن مزيد وظل مقيما بها، حتى اضطر إلى المسير إلى الرحبة بعد أن دخل طغرلبك بغداد.

لم تكن أحوال العراق بخافية عن طغرلبك، فقد اعتزم انتهاز الفرصة وأظهر فى سنة ٤٤٧ إنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى مصر وإزالة المستنصر العلاوى صاحبها، وأرسل إلى الخليفة يستأذنه فى دخول بغداد، فأذن له وأمر بإقامة الخطبة له على منابرها.

أظهر العامة فى المدينة تذمرهم من دخول طغرلبك وقتلوا بعض جنوده الأمر الذى أدى إلى استياء طغرلبك، واستدعى الملك الرحيم، واتهمه بتدبير ما حدث وأرسله إلى قلعة قرب الرى، فظل معتقلا بها ثلاث سنوات حتى مات.

لما علم الخليفة بما حل بالملك البويه بعث إلى طغرلبك يستنكر ما حدث ويقول "أنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد" فاضطر طغرلبك إلى إطلاق بعضهم، فرحل كثير منهم إلى البساسيرى والتفوا حوله.

طال مقام السلاجقة ببغداد حتى ضج منهم أهلها فغادروها فى سنة ٤٤٨ بعد أقاموا سنة لم يحظ طغرلبك خلالها بمقابلة الخليفة.

عاد هبة الله إلى العراق ومعه مدد من مصر، ونجح فى استمالة بعض أمراء العرب إلى دعوة الخليفة المستنصر بالله فأقام له الخطبة بالموصل، ولما تأكد من نجاحه رجع أدراجه إلى مصر.

خاف طغرلبك من تفاقم الأوضاع وسارع بدخول بغداد مرة ثانية فى سنة

٤٤٩، وقابل الخليفة القائم الذى خلع عليه ودعاه بملك الشرق والمغرب، وخاطبه على لسان وزيره "إن أمير المؤمنين شاكر بن سعيد حامد لفعلك مستأنس لقربك، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعات عباده، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك فى ذلك، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية".

لم ينعم طغرلبك بالاستقرار، إذ خرج عليه أخوه إبراهيم ينال الذى كاتب البساسيرى، وأظهر رغبته أن يدعوا للخليفة الفاطمى، فاضطر طغرلبك لأن يفارق بغداد وتعقب البساسيرى وأنصاره إلى نصيبين، ثم استعان بابن أخيه ألب أرسلان، واستطاع فى سنة ٤٥١ أن ينتصر على إبراهيم ينال بالقرب من الرى، وأسره ثم قتله.

انتهز البساسيرى فرصة انتقال طغرلبك بثورة أخيه، وزحف إلى بغداد فى أربعمائة فارس حاملا الرايات المستنصرية التى كتب عليها "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين" وتمكن فى سنة ٤٥٠ من دخول المدينة، وأقام الخطبة للفاطميين فى جامع المنصور وضرب السكة باسمهم، وأرغم القائم على أن يكتب إقرارا بأنه لا حق لبنى العباس فى الخلافة، وأبعده إلى حديثه عادة.

عندما بلغت هذه الأنباء مصر، أقيمت بها احتفالات ووقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة المستنصر تنشد هذين البيتين:

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معد

ملككم كان معارا والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر بغنائها، واقطعها أرضا ما زالت تعرف إلى اليوم بأرض الطالبة.

عول طغرلبك على العودة إلى العراق بعد أن قضى على ثورة أخيه فلما اقترب من بغداد أدرك البساسيرى أن لا طاقة له به، فغادرها إلى الكوفة فى سنة

٤٥١ ولم يلبث أن اعتزم الخفية القائم العودة إلى بغداد، فخرج طغرلبك لاستقباله عند وصول النهروان، وقبل الأرض بين يديه، واعتذر له عن تأخره بسبب فتنة أخيه، وأعلن عزمه على مطاردة البساسيرى والسير إلى الشام ثم مصر.

بعد قليل تمت هزيمة البساسيرى وقتله واستقر الأمر للسلاجقة بالعراق.

٣ - سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين:

كان دخول السلاجقة بغداد فى سنة ٤٤٧ بداية عهد جديد للخلافة العباسية، ومع أنهم أبعدوا خطر الفاطميين إلا أن أحوال الخلافة لم تختلف كثيرا عما كانت عليه فى أيام البويهيين، بل أنهم عاملوا العراق على أنه إقليم من أقاليم دولتهم الواسعة، واكتفوا بأن أرسلوا نوابا عنهم، وظل الخليفة يعيش من الأرزاق والإقطاعات التى يقررها له السلاجقة ولم يكن له من نفوذ سوى نقش اسمه على السكة وذكره فى الخطبة، واحتجت عن رعاياه، ولم يعد يظهر إلا فى المناسبات العامة.

قبل أن يرحل طغرلبك إلى الرى أمر بأن تحمل موارد العراق المالية إلى خزانته، بدلا من خزانة الخليفة وأناب عنه فى حكم بغداد موظفا يعرف بالعميد، وعين موظفا آخر لحفظ الأمن فى بغداد يعرف بالشحنة، ووضع تحت تصرفها حامية من جنوده.

أراد طغرلبك تدعيم نفوذه السياسى بأن يتزوج بابنة الخليفة الذى فزع من ذلك الأمر، ثم اضطر فى النهاية إلى الإدعاء على أن طغرلبك مات قبل أن يدخل فيها.

تولى ألب أرسلان السلطنة فى سنة ٤٥٥ فبادر إلى إعادة ابنة الخليفة إلى أبيها، فأمر القائم بالخطبة له فى مساجد بغداد باسم "السلطان العظيم عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود". وعندما انتصر السلطان على الروم فى ملازكرد لقبه "السلطان الأعظم ملك العرب والعجم ملوك الأمم".

وحين اعتزم ألب أرسلان ترشيح ولده ملكشاه وليا لعهده بعث إلى الخليفة بذلك فوافقه فى ترشيحه، ولم يلبث أن اعتلى ملكشاه عرش أبيه فى سنة ٤٦٥ وأرسل القائم إليه عهده بالسلطنة.

مات القائم فى سنة ٤٦٧ بعد أن حكم خمسة وأربعين سنة فخلفه حفيده المقتدى بالله، وتواصلت العلاقات الطيبة بينه وبين ملكشاه، إلا أن العلاقات توترت فى سنة ٤٧١، فقد طلب ملكشاه من المقتدى أن يعزل وزيره ويولى آخر رشحه هو مكانه، واستجاب الخليفة بعد تردد، ولم يلبث أن تزوج بابنة السلطان، مما أدى إلى تحسين العلاقات بينهما.

طلب ملكشاه من المقتدى أن يجعل الأمير جعفر وليا لعهده بدلا من أخيه وكان جعفر أبنا للخليفة من ابنة السلطان.

رفض المقتدى طلب ملكشاه فاعتزم التوجه إلى بغداد فى سنة ٤٨٥ لخلعه غير أنه مات قبل أن يتحقق هدفه.

بعد وفاة ملكشاه ولى ابنه محمود، وكان طفلا فى الخامسة من عمره واعترف به الخليفة ولقبه ناصر الدنيا والدين.

كان لمحمود أخ أكبر منه هو بركياروق طمع فى السلطنة ودارت الحرب بينه وبين أخيه وتمكن من هزيمته، ودخل بغداد فى سنة ٤٨٧ ومنحه الخليفة لقب ركن الدين.

توفى المقتدى فى سنة٤٨٧ وخلفه ولده أحمد الذى تلقب بالمستظهر بالله، فجدد الاعتراف ببركياروق فلما علم تاج الدين تتش بن ألب أرسلان، وكان يلى بعض بلاد الشام بذلك ثار مطالبا بالسلطة واستولى على حلب ومدن أخرى غيرها، وأرسل إلى المستظهر يطلب الاعتراف به سلطانا فأجابه، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد لكنه عندما هزم على يدى بن أخيه قرب الرى فى سنة ٤٨٨ وفشل، أعاد الخليفة الخطبة باسم بركياروق.

على أن الأمور لم تستقر بيدى بركياروق، فقد ثار عليه أخوه محمد صاحب أذربيجان، وأرغم الخليفة على الاعتراف به سلطانا، وبذا صار هناك سلطانان معترف بهما، وانتهى الأمر إلى اتفاق الأخوين على أن تكون المناطق الشمالية لمحمد والمناطق الجنوبية لبركياروق.

لما توفى بركياروق فى سنة ٤٩٨ خلفه ابنه ملكشاه، فقدم إلى بغداد وخلع الخليفة عليه ولقبه جلال الدولة، فأثار ذلك حفيظة السلطان محمد، فسار إلى بغداد ودخلها الغربى وخطا له بمساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة فى الجانب الشرقى باسم ملكشاه، واستمر الحال على ذلك حتى عزل ملكشاه وسلمت عيناه.

عندما مات السلطان محمد فى سنة ٥١١ خلفه ولده محمود وأقيمت الخطبة له فى بغداد لكن عمه سنجر حاكم خراسان استاء لذلك وأعلن نفسه سلطانا، وبذا أصبح هناك سلطانان مرة أخرى.

انتهز الخليفة المسترشد الذى ولى سنة ٥١٢ هذه الفرصة واعتزم التخلص من النفوذ السلجوقى، وأخذ يضرب السلاجقة بعضهم ببعض فاستحال السلطان محمود ولما علم سنجر بذلك بعث إلى ابن أخيه يحذره من مغبة هذا التحالف، واقتنع محمود بنصيحة عمة وأيده فى هذا الاقتناع اتصال الخليفة بأمراء الأطراف واستعانته بهم، فاعتزم محمود المسير إلى العراق فى سنة ٥٢٠.

تأهب المسترشد لمقاتلة محمود، وكاد ينتصر علية لولا وصول عماد الدين زنكى والى البصرة لنجدة سلطانه، فاضطر الخليفة إلى طلب الصلح، واضطر محمود أيضا إلى مغادرة بغداد عندما علم بخروج أخيه محمد عليه وذلك سنة ٥٢٥.

مات السلطان محمود بعد قليل، ونشب صراع طويل بين السلاجقة على السلطنة انتهى على أن صار مسعود بن محمد بن ملكشاه سلطانا فى سنة ٥٢٦ وأقره المسترشد.

عاود المسترشد سياسته السابقة ووصل به الأمر إلى أن قطع الخطبة لمسعود فى سنة ٥٢٩، فوقت الحرب بينهما وانتهت بأسر الخليفة وحبسه فى قلعة قرب همذان، فغضب أهل بغداد ومنعوا الصلاة والخطبة.

لما وجد السلطان سنجر ما أحدثه أسر الخليفة من رد فعل سيئ طلب اين أخيه مسعود أن يعتذر للمسترشد، فوافق وتم الصلح بينهما على أن مسعودا حرض بعض الإسماعيلية على المسترشد، فقتلوه فى سنة ٥٢٩ وتظاهر السلطان بالأسف لموته.

ولى الراشد بعد أبيه المسترشد، فتعهد لمسعود بأنه إذا حاول محاربته حق عليه الخلع، وتعهد أيضا بأن يؤدى إليه أربعمائة ألف دينار، لكنه تنصل من وعوده بعد ذلك بل ألب عليه حكام دولته وعلى رأسهم عماد الدين زنكى صاحب الموصل.

تغلب مسعود على هذا الحلف فى سنة ٥٣٠ ودخل بغداد وأشهد الفقهاء على سوء سيره الراشد فأفتوا بخلعه، فولى مكانه عمه المقتفى، ولم يقف عند هذا الحد، بل أوعز إلى جماعة من الإسماعيلية فقتلوه فى سنة ٥٣٢ مثلما قتلوا أباه قبله.

صار المقتفى مع مسعود بلا حول ولا طول، وعندما أرسل إليه هذا الأخير فى سنة ٥٣١ يطلب مائة ألف دينار، كان المقتفى لا يملك غير الدار التى يقيم فيها.

٤ - زوال نفوذ السلاجقة بالعراق:

بدأت معاول الهدم تعمل عملها فى دولة السلاجقة بسبب نزاعاتهم الداخلية، وفساد النظام الإقطاعى الذى أنشأه نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وتوطد أمر الصليبيين فى بلاد الشام، وهجوم قبائل الخطا على مشرق الدولة الإسلامية وأخيرا قيام الدولة الخوارزمشاهية.

استطاع الخليفة المقتفى أن يسيطر على بغداد بعد وفاة السلطان مسعود فى سنة ٥٤٧، بل أنه قطع الخطبة لابن أخيه محمد، الذى سارع إلى حصار بغداد، لكنه رفع الحصار حين علم بخروج بعض أهل بيته عليه، ولم يلبث أن مات فى سنة ٥٥٤.

استقرت الحال بالمقتفى بعد زوال الخطر عن بغداد وصار أول خليفة يحكم بها مستقلا عن نفوذ السلاجقة لكنه مات فى العام التالى.

خلف المستنجد أباه المقتفى وتابع سياسته فى الضرب بين السلاجقة بعضهم وبعض، وعلى النحو نفسه سار ولده المستضىء عندما ولى فى سنة ٥٦٦.

فى سنة ٥٧٥ ولى الخلافة أبو العباس أحمد بن المستضىء وتلقب بالناصر لدين الله وخلال عهده الطويل الذى امتد نحو خمسين عاما استطاع أن يسترد بعض ما كان للخلافة من نفوذ فى صدرها الأول.

فى سنة ٥٧٩ استعاد الناصر من السلاجقة أربل وشهر زرو وجزيرة ابن عمر وفى سنة ٥٨٥ استعاد تكريت وأضاف إليها حديثه عانه فى العام التالى.

أرسل الناصر إلى علاء الدين تكش خوارزمشاه يشكوا إليه طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق ويحثه على قتاله ووعده بأن يقطعه ما بيده من بلاد، فلبى تكش طلب الخليفة، والتقى جيشه بالعسكر السلجوقى قرب الرى فى سنة ٥٩٠ فهزم طغرلبك واحتذت رأسه، وأهداها تكش إلى الناصر فأمر برفعها على أحد أبواب بغداد.

نتيجة لهذا النصر سيطر الخوارزميون على العراق العجمى وتقلدوه رسميا من الخليفة الذى صارت له السلطة فى العراق العربى وخوزستان.

طمع الخوارزميون فى أن يحلوا فى بغداد محل السلاجقة فلما رفض الخليفة دارت الحرب بين الفريقين واضطر الناصر على أن يستعين على أعدائه بالغوريين الأمر الذى دعى تكش إلى التخلى عن أطماعه، ولما مات فى سنة ٥٩٦ خلفه

ولده علاء الدين محمد عاود التوجه إلى غزو العراق، فلم يجد الناصر إلا أن يطلب معونة التتار.

❊ ❊ ❊

سقوط الخلافة العباسية

١ - التتار وجنكيزخان

٢ - التتار والدولة الخوارزمية

٣ - التتار وسقوط بغداد

سقوط الخلافة العباسية

١ - التتار وجنكيزخان:

التتار (التتر) أو المغول شعب من الشعوب التى استوطنت فى أواسط آسيا، وبخاصة الأراضى الواقعة على تخوم الصين وقد عاشوا عبر العصور بدوا ينتجون مواطن الكلأ فى الصحروات الأستبسية الشاسعة، شأنهم فى ذلك شأن أقربائهم من الهون الذين اشتهروا فى العصر الرومانى، والأتراك - سلاجقهم وعثمانيهم - الين اشتهروا فى العصر الإسلامى.

لم يكن العالم يعرف شيئا عن التتار حتى أذن القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بالمغيب، فروع هذا العالم بزحف التتار غربا بسرعة لا يدانيها سوى زحف العرب بعد وفاة نبيهم الكريم. على أنه ثمة فارقا أساسيا بين الزحفين رغما عن تشبه الشعبين فى أشياء كثيرة أخصها البداوة، هذا الفارق يكمن فى نوعية الرسالة التى كانت هدف الزحف وأسلوبه فقد كانت رسالة التتار وأسلوبهم فى وقت واحد هو التدمير، التدمير فحسب.

وربما كان افتقار التتار على كل شىء عدا التدمير، هو الذى جعل فتوحاتهم تتم بسرعة مذهلة ثم تنقرض بسرعة مذهلة أيضا، والسبب فى ذلك أنهم كانوا بلا تراث ثقافى أو حضارى يطبعون به الشعوب التى حكموها، بل أنهم لم يلبثوا أن أسلموا فى معظمهم، وتحمسوا فى إسلامهم، وإن لم يتعمقوه، وقد أعان الإسلام على بقائهم، بعد انقضاء عهد قوتهم، بل أعان أيضا على بقاء بعض دولهم حتى القرن الماضى.

امتدت فتوح التتار وغزواتهم آلاف الأميال طولا، وآلاف الأميال مثلها عرضا فشملت الصين، والنصف الشمالى من الهند ونصف أوربا الشرقى وجميع العلم الإسلامى فى قارة آسيا - فيما عدا الجزيرة العربية - وكانوا على أهبة أخذ مصر نفسها.

فى سنة ١١٧٥م مات يسوجاى - زعيم إحدى قبائل التتار وخلف صبيا صغيرا فى نحو الثلاثة يدعى تيموجين.

تمتع هذا الصبى بمواهب عديدة أهلته ليكون زعيما لقبيلته، ثم زعيما لقبائل التتار كافة. وفى سنة ١٢٠٦/٦١٣ وكان قد بلغ مبلغ الرجولة، اجتمع زعماء التتار فى قوريتلاى - أى مؤتمر عام - وأعلن الشامان، وهو الكاهن الوثنى "أن السماء قد خلعت تيموجين لقبا أرفع من اللقب الذى كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح منذ ألان جنكيزخان".

تعنى جنكيزخان عند التتار الملك العظيم ذا الحلول والطول.

وضع جنكيزخان للتتار اليساق أو الياسة.

تعد اليساق دستور التتار الذى كان عرفا فحوله جنكيزخان بعد أن نظمه وأضاف إليه إلى نص مكتوب يلتزم به التتار جميعا.

نلاحظ على هذا الدستور بوجه عام:

أ - عنف لهجته التى نجعل القتل لبعض المسائل البسيطة مثل الكذب والخسارة فى التجارة وعن الأسير والسكوت عن آبق العبيد.

ب - الطاعة التامة لشخص الحاكم والانصياع لهذه الطاعة دون تفكير وعلى كل تتارى أن ينفذ ما يطلبه الحاكم حتى لو كانت مغبته حياته نفسها.

ت - على أنه يجب التعاون بين التتار بعضهم البعض ماذا وقع من أحدهم شىء وهو يحارب على صهوة جواده وجب على غيره من زملائه أن يترل ويناوله أياها.

ث - والتكافل أيضا فلا يأكل أحدهم وغيره جوعان، بل أنه يجب ألا يتميز بالشبع.

ج - وهم فيما بينهم بسطاء فى التعامل وبسطاء أيضا فى التعامل مع زعيمهم فلا ينادونه بغير اسمه مجردا.

ح - وما دامت حرب عقيدتهم، فلا بد من حرية الضمير بين بعضهم وبعض ولا يتعرض أحد منهم لمله يعتقدها أحد أخر منهم.

خ - ولابد أيضا من أن تساهم المرأة فى المجتمع بدور وافر فهى تقوم بعمل الرجل فى حالة غيابه فى الحرب.

د - والتتار متمايزون عن المسلمين، فلا يذبحون ذبائحهم ولا يحرصون على نظافتهم الشخصية ولا نظافة ملابسهم.

ذ - ولا بأس من الميل لأبناء على بن أبى طالب، فلا يكلف أحدهم بشىء (والسبب فى ذلك رغبة جنكيزخان فى استثمار عناصر الفرقة بين المسلمين بعضهم البعض).

كانت تجاور بلاد التتار من ناحية الغرب دولتان تركيتان دولة الخطا وهى دولة وثنية، ودولة خوارزم، وهى دولة إسلامية تفرعت عن دولة سلاجقة فارس.

٢ - التتار والدولة الخوارزمية:

بلغت دولة خوارزم أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم مشاه ٥٩٦/١١٩٩ - ٦١٧/١٢١٩ حتى أصبحت أقوى دولة إسلامية فى المشرق، وامتدت من حدود العراق غربا إلى حدود الهند شرقا ومن شمالى البحر طبرستان (قزوين) وبحيرة خوارزم (آرال) شمالا على بحر العجم (الخليج العربى) جنوبا.

تطلع علاء الدين إلى أن يحل محل السلاجقة فى العراق فلما فشل مسعاه اعتنق المذهب الشيعى، واستصدر من رجال الدين فتوى بخلع الناصر لدين الله العباسى، واختار رجلا علويا من أهل تذمد يدعى علاء الملك، وبايع له خطب له أيضا من المنابر وضرب السكة باسمه.

فى سنة ٦٠٦/١٢٠٢ انتصر علاء الدين على الخطأ، وفى سنة ٦١٢ أجهز على الغوريين أصحاب الهند، وانفتح الطريق أمامه على العراق.

شعر الخليفة الناصر بالخطر الذى يهدده، فكاتب جنكيزخان، ويصف المؤرخ المعاصر ابن الأثير بأنه (الطامة الكبرى التى يسغر عندها كذنب عظيم).

من الطريف أن الرسول الخليفة على جنكيزخان كان من اللازم عليه أن يعبر أراضى الدولة الخوارزمية، لذلك فيقال أنه كتبت الرسالة على رأس الرسول بعد أن حلق شعره، ثم ترك هذا الشعر لينموا، كما استظهر الرسول الرسالة لما وصل إلى خاقان التتار ردد الرسالة لكى يبرهن على صحتها حلقت رأسه فقرات الرسالة على الحضور.

وصلت رسالة الناصر إلى جنكيزخان متأخرة لأن خوارزمشاه كان قد بدأ المسير بجيوشه بالفعل وأزال أتابكية فارس، أتابكية أذربيجان والتقى قرب همذان فى سنة٦١٤بشهاب الدين سهروردى رسول الخليفة إليه فلم يأذن الشاهنشاه بالجلوس، ولما سلم عليه لم يرد، ثم خطب سهرردى خطبة بليغة فذكر فضل بنى العباس وزهد الخليفة وورعه ودينه، فرد عليه علاء الدين "أنا أجئ وأقيم، خليفة يكون بهذه الأوصاف".

سار خوارزمشاه من همذان إلى حلوان، فحاصره الشتاء وهبت على جيشه عواصف ثلجية أهلكت كثيرا من جنوده، وتعرض الباقون لعادية الأتراك والأكراد، فأثر علاء الدين العودة من حيث آتى.

ما كاد الشاهنشاه يصل على بخارى فى سنة ١٢١٨/٦١٥، حتى وجد سفارة من جنكيزخان يطلب منه التجارة بين البلدين فوافق خوارزمشاه، وعليه بدأ الجواسيس التتار يتخفون من هيئة التجار، ويأتون مملكة خوارزمشاه يتحسسون أخبارها.

اكتشف حاكم أترار - وهو حصن يقع على أطراف الدولة - حقيقة بعض هؤلاء التجار فقتلهم، فطلب جنكيزخان من خوارز مشاه تسليمه الحاكم، وإلا فليأذن "يجرب ترخص فيها غوالى الأرواح".

كانت إجابة خوارزمشاه أن قتل رسول الخاقان.

زحفت جموع التتار الجراد المنتشر.

يقول بن الأثير الذى عاصر هذه الأحداث "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، واستعظاما لها كارها لذكراها فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك".

فيا ليت أمى لم تلدن، وياليتنى مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا... ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا... هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى...

فلو قال قائل: "إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم على الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة استطار شررها وعم شررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح".

اجتاحت جيوش التتار دولة خوارزم من جميع نواحيها وعندما سقطت فى يديه مدينة أترار، أمر بحاكمها فسكبت فى عينيه وأذنيه كمية من الفضة المصهورة إلى أن مات.

اقتحم جنكيزخان بخارى، ودخل جامعها صهوة جواده وحوله إلى حظيرة لخيوله وجعلها تدوس المصاحف بسنابكها، ونهب المدينة نهبا تاما ثم أحرقها، بعد أن قتل وسبى النساء والولدان وافتض جنوده البكار، وقتلوا من لا يصلح للسبى.

كرر جنكيز خان الذى وصف نفسه بـ"نقمة الله على الأرض" فعله هذا فى سمرقند وغيرها من المدائن.

بعد أن فرغ التتار من بلاد ما رواء النهر عبروا على خراسان واحترفوا

شمالى إيران حتى بلغوا الرى، ففتح قاضى قضاتها الشافعى أبواب المدينة لهم من أجل أن يجهزوا على خصومه من أهل المذاهب الأخرى، فلما تم لهم ذلك أجهزوا على الشافعية أنفسهم ولم تلبث أن وصلت طلائع التتار إلى أربل شمالى العراق العربى.

عادت جيوش التتار على سمرقند، حيث عقد الخاقان الأعظم اجتماعا لكبار القادة فى سنة ٦٢١/ ١٢٢٤ ثم غادر المدينة إلى العاصمة قره قورم فى أعماق آسيا.

أما خوارزمشاه الذى لم يقع فى أيدى التتار، فأنه ظل طريدا مطاردا على أن لاذ بإحدى الجزر فى بحر قزوين، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى سنة ٦١٧/ ١٢٢٠.

استقر جلال الدين منكبرتى فى بلاد الهند، ثم اعتزم بعث ملك أبيه وتم له ذلك بعد أن انسحب التتار، فطلب من الخليفة الناصر إقامة الخطبة له ببغداد، ولم يجبه فاعتزم المسير إليه فى سنة٦٢٢ وحصن الناصر بغداد وأنفق فى سبيل ذلك ألف ألف دينار، على أن جلال الدين انسحب فور وصوله تكريت عندما علم بانتقاض أذربيجان وسالم الناصر الذى مات فى العام نفسه ثم سالم ولده الظاهر وحفيده المستنصر.

حاول جلال الدين استفزاز المسلمين لحرب التتار، لكنه قبل أن يتم له ذلك، دهمه جيش تتارى ضم ثلاثين ألف مقاتل، وأخذ يطارده من بلد على أخر حتى انتهى به المطاف على قرية كردية فقتله بعض أهلها غيلة فى سنة ٦٢٩/ ١٢٣١.

٣ - التتار وسقوط بغداد:

فى سنة ٦٢٤/ ١٢٢٣ مات جنكيزخان وصار ولده أغطاى خاقانا للتتار، وقبل أقل من عشرين عاما تم له فتح بلاد الصين وكوريا فى أقصى الشرق، وأزال الدولة الخوارزمية، واجتاحت جيوشه أوربا، ودانت لها موسكو وكييف، واستولت

على المجر وبلغاريا وبولندا، وفى عام وفاة أغطاى ٦٣٩/ ١٢٤١ عبرت هذه الجيوش نهر الدانوب وتطرقت إلى ألمانيا نفسها.

خلف أغطاى والده كيوك ثم مانجوخان بن تولوى بن جنكيزخان ٦٤٦/١٢٤٨ - ٦٥٥ - ١٢٥٧.

فى عهد مانجوخان تسرب على قورم عدد من الركبان ومبشرين المسيحيين معظمهم صليبيون، وصرف هؤلاء جهدهم من أجل عقد حلف بين الصليبين فى الشام وبين التتار.

كان الصليبيون يمرون فى هذه الأثناء بظروف صعبة، فقد تعثرت الحملة التى قادها القديس لويس على مصر، وبدأت قلاعهم تتساقط واحدة بعد الأخرى فى أيدى المماليك.

كان التتار فى حروبهم مع جلال الدين منكبرتى قد أوغلوا فى أطراف العراق، فدخلوا ميافارقين وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتابعوا سيرهم إلى الموصل فأصابوا بعض قراها، وفى سنة ٦٣٢/ ١٢٣٥ دخل أربل.

عندما تناهت هذه الأنباء إلى الخليفة المستنصر أرسل بعض قواته التى اشتبكت مع التتار فى معارك صغيرة سنة٦٣٥/ ١٢٣٨ وكانت الغلبة فى هذه المعارك للتتار، وأسفرت عن نهبهم للجزيرة وديار بكر وميافارقين

كانت هذه الحملات الصغيرة مقدمة للحملة الكبيرة التى قادها هولاكو شقيق الخاقان.

فى سنة ٦٥٣/ ١٢٥٥ بدأ هولاكو حملته الكبيرة، خرج من سمرقند وعبر نهر جيحون ونزل بطوس وعقب الإسماعيلية الذين سيطروا على هذه الأنحاء، واقتحم قلعتهم الشهيرة الموتفى سنة٦٥٥/ ١٢٥٧وقتل زعيمهم ركن الدين خورشاه.

جعل هولاكو قيادته فى همذان وأرسل بعوثا من جنده فنهب ديار بكر

وميافارقين ثم أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله يطلب أن يهدم حصومه ويردم خنادقه ويحضر لمقابلته.

كان المستعصم الذى خلف أباه المستنصر فى سنة ٦٤٠/ ١٢٤٢ قد ألقى القيادة لوزيره علاء بن العلقمى وكان شيعيا رافضيا ينقسم على أهل السنة ما أنزلوا بالرافضة من ضروب الهوان، وعندما هاجم السنة الكرخ - وهو معقل الرافضى ببغداد - طلب ابن العلقمى من أصحابه الكف عن القتال والصبر وقال لهم "أنا أنتقم لكم مما حدث".

تحول ابن العلقمى إلى جاسوس لهولاكو، فصار يغرى الخليفة بقطع أرزاق الجند توفيرا للنفقات، ويحثه على مهادنة التتار، ويخفى عنه أخبارهم، وفى الوقت نفسه يكاتب الأعداء يغريهم بالفتح، ويلتمس أن يكون نائبا عنهم بالعراق.

أرسل الخليفة إلى هولاكو سفارة على رأسها شرف الدين ابن الجوزى، لم تسطع أن تثنيه عن عزمه فى أخذ بغداد، ورفض عرض سفير الخليفة فى أداء جزية سنوية، وقال "لقد قطعنا طريقا طويلا فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة أننا بعد تشرف بالمثول بين يديه، وبع أن نتحدث معه، سنسمع أوامره مباشرة".

عبر التتار نهر دجلة وألحقوا بالجيش العباسى الذى كان يقوده مجاهد الدين أيبك الدويدار، وحاصروا المدينة من ناحيتها الشرقية والغربية.

كان يصحب التتار فى حصارهم بغداد أمراء المسلمين، ثم سعد أتباك شيراز، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، كما كان يصحبهم أيضا عطا ملك الجوينى المؤرخ المشهور، ونصير الدين الطوسى الفلكى.

انصاع المستعصم لمشورة وزيره ابن العلقمى الذى اقترح عليه الخروج إلى هولاكو ومصالحته على نصف خراج العراق يؤديه كجزية.

يوم الأحد٤سفر٦٥٦/ ١٠فبراير١٢٥٨ خرج المستعصم للقاء هولاكو ومعه أولاده الثلاثة وعدد كبير من أعيان بغداد، وقدم إليه ما مقداره ألفا ثوب وعشر

آلاف دينار غير الجـواهر والنفائس، فلم يلتفت هولاكو وأعطـاها لأمرائه ثم سأله عما لديه من ذهب مخبوء، فدله المستعصم عليه وكان شيئا كثيرا.

طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر الناس بالكف عن القتال ففعل وما كاد يتم ذلك حتى انقض التـتار يمعنون فيهم تقـتيلا حتى صار القـتلى فى طرقات المدينة كالتلال وناهز عـددهم المليون ونزل هولاكو بقصـر المأمونية، وأباح بغداد أسـبوعا هدم التتار فيه مـساجدها وجردوا قصورها واحرقوا مكتباتهـا وسبوا نسائها وهتكوا أعراض بناتها.

أما المستعـصم وبنوه فقد وضع كلا منهم فى بساط، وأمـر هولاكو برفسهم حتى ماتوا، وسبى بناته الثلاث.

بعد ثلاثة شهور قتل الوزير ابن العلقمى.

بسقوط بغداد سقطت الخلافة العباسية التى امتد تاريخها لما يزيد على خمسة قرون، على أن سلاطين المماليك بمصر شـاؤا أن يجددوا هذه الخلافة عندهم حتى يتـمنى لحكمهم غطاء شـرعى يرضى به المسلمـون، وعلى ذلك استـدعى الظاهر بيبرس الأمير أحمد وهو عم المستعصم وبايعه خليفة باسم المستنصر.

ظلت الخـلافـة العـباسـيـة قـائمـة بمصـر حـتى أزالهـا العثـمـانيـون فى سنة٩٢٣/١٥١٧، وبقيت معطلة إلى أدعاها السلطان عـبد الحميد فى سنة ١٨٧٦ فظلت فى البيت العثمانى حتى سنة ١٩٢٤.

***